رغبة في البكاء

المنّوبي زيّود*

ـ التزمْ يمينَك يا حمار.

قالها سائقُ سيارة وقح وهو يكاد يَدْهسه. كانت تلك أولَ كلمة تلقّاها بعد أن خرج من السجن. ربما كان ذلك السائق الفظّ على حقّ عندما أشار إليه بالتزام اليمين، بعد أن قضى عشر سنوات بتهمة الانتماء إلى تنظيم يساري. ولأنّه قضى عقدًا من الزمن وهو قابع في السجن من أجل اليسار، فربما يكون حمارًا إنْ لم يرجعْ إلى اليمين. وبين اليمين واليسار مازال يتذكّر ما قاله الشيخ عبد الرحمن: «إنّ خير الأمور أوسطها.»

من أجل ذلك السائق وأمثاله، انخرط في تنظيم العمّال اليساري، وناضل في صفوف الحركة الطلابية، وقضى تلك السنوات الطوال في غياهب السجون. وها هو أحدُ الكادحين ينعته بالحمار! قال في نفسه: «أنا حمار وألف حمار. لو أكملتُ دراستي لأصبحتُ قاضيًا وحكمتُ عليكَ بالسجن أيُّها السائق الوقح.»

توقّف نضال على الرصيف وأنزل الكيسَ من على ظهره. أَشْعل سيجارةً وعبّ منها نفسًا عميقًا. اتّكأ قليلاً على عمود كهرباء وتأمّلَ الكيس: فيه بذلة قديمة، وعشراتُ الكتب التي كان يتسلّى بقراءتها في السجن. وها هو يحملها كالحمار يَحْمل أسفارًا. في الكيس كتابٌ لروزا لكسمبورغ، وكتابان في النظرية والتطبيق لماوتسي تونغ، وكتبٌ أخرى لهيغل وماركس وأنجلز ولينين

شعر لأول مرة بالقرف وهو يتنسّم أُولى نسائم الحرية. ودّ لو رَفَسَ تلك الكتبَ بقدميه. ماذا يفعل بها الآن؟ وهل مازالت صالحةً للاستهلاك؟ وهل تستطيع أن تَصْمد أمام ثقافة الهمبرغر ونظرية البيريسترويكا لغورباتشوف؟ ولينين لم يعد له وجود إلاّ في ساحات موسكو؛ أضحى صنمًا تغطّيه الثلوجُ وتنهشه الرطوبة.

في اليوم الأول من السنة الثانية لسجنه زارتْه والدتُه، وأعلمتْه أنّ خطيبته فاطمة تزوّجتْ. وبكت أمامه. وحتى تشجّعه قالت له: «لا تحزنْ يا ولدي. أنت رجل شهم. كلُّ فتاة تتمنّى الزواج منك. هل تدري أنّهم يسمّونني أمَّ البطل؟» وفي اليوم الأول من السنة الموالية أخبرتْه والدتُه بأنّ فاطمة أنجبتْ ابنًا. وفي السنة الثالثة لم تزره والدتُه، ولم يزرها في قبرها. رآها في المنام تأتيه بالحليب. وبكى كثيرًا رغم أنّ عينيه عصيّتان على الدمع.

نظر إلى ساعته. إنّها التاسعة صباحًا. سأله سمسارٌ في النقل عن وجهته فلم يردّ عليه. ثلاث ساعات تَفْصله عن موعد انطلاق الحافلة إلى قريته. انطلق متسكّعًا في شوارع المدينة. لاحظ أنّ كلّ شيء قد تغيّر. المكتبات صارت محلات لبيع الآلات الإلكترونية، ومحلاّتُ بيع الشعير والذُرة أضحت مطاعمَ للأكلة الخفيفة؛ حتى مكتب عُدول الإشهاد أصبح محلاً لبيع الأزياء والعطورات.

وجد نفسه أمام قصر العدالة، الذي خرج منه مباشرةً إلى السجن بعد محاكمة مضنية. وأحسّ برغبة في الفرْجة على محاكمة الآخرين. دخل قاعةَ الجلسة كانت مكتظةً على غير عادتها الحاضرون ينتمون إلى كلّ الأعمار والفئات تقريبًا. أعناقُهم مشرئبة، وآذانُهم صاغية، وأجسامُهم متلاصقة تنبعث منها رائحةُ العرق المتصبّب على وجوههم. نسمة الصباح الخفيفة لا تكاد تلج نوافذَ القاعة من فرط الازدحام.

لم تمضِ سوى لحظات حتى رنّ جرسُ القاعة فصاح الحاجب. «محكمة!»

دخل القضاةُ يتوسّطهم منصور، فاندهش نضال لمّا رأى صديقَه منصور. فلقد كانا رفيقيْن لا يفترقان: في الكلية، وفي المبيت الجامعي، وفي الاجتماعات العامة، وفي المظاهرات الصاخبة، وحتى في المخابئ السرية. لا بدّ أنّه تذكّر كلّ شيء؛ نظرته تُوحي بذلك حدّق فيه مليًا. أحسّ بأنّه ارتبك من المفاجأة. لا ترتبكْ يا منصور. السلطة بيدك، ومفتاحُ السجن بجيبك، وأنا لم أعد شخصًا ذا بال. أنت نخلة باسقة في واحة غنّاء، وأنا جذعُ نخلة يابسة على شاطئ مهجور، بل مجردُ ورقة صفراء ألقتها رياحُ الخريف على الأرصفة الرصاصية.

---

* ـ محامٍ تونسي.

نادى القاضي منصور على المتَّهم الأول. تصفّح أوراقَ الملف بسرعة ثم قال:

ـ أنت متَّهم بالانتماء إلى تنظيم سرّي غير معترف به، وبتوزيع مناشير تحرِّض على العصيان، وبالتآمر على أمن الدولة الداخلي ماذا تقول في التهم المنسوبة إليك؟

ـ لا يا سيدي. أنا بريء من تلك التهم. وليست لي علاقةٌ بأيّ تنظيم سري.

ـ لقد حَجَزوا عندك بعضَ المجلات والكتب الممنوعة.

ـ إنَّها كتب ومجلات تباع في المكتبات العمومية.

ـ لقد زرتَ المتهم أحمد في مكتبه عدّة مرات.

ـ إنَّه زميلُ دراسة. كنّا نراجع الدروسَ معًا.

ـ وهل تعلم أنّه ينتمي إلى التنظيم المحظور؟

ـ لا.

ـ اعترافك المسجَّل عليك موجود لدى المباحث. هل تُنْكره الآن؟

ـ لقد انتُزِعَ منّي غصبًا بموجب التعذيب.

كان القاضي منصور يستمع إلى المتّهم ويسترق النظرَ إلى نضال. نظرة القاضي الباهتة توحي بأنّه تذكّر كلّ شيء: تذكّر تاريخَهما المشترك؛ والغرفةَ المشتركة بالحيّ الجامعي التي هَجَراها إثر هجوم فرقة النظام العام؛ وحملةَ التفتيش الدقيقة التي لم تترك إبرةً في كومة تبن إلاّ وأخرجتْها؛ والملاحقاتِ التي طالت عناصرَ التنظيم والمطاردات التي استهدفتْ قياداته من الشمال إلى الجنوب. وفي ذلك الجوه المشحون بالترقُّب والرعب استطاع مع صديقه منصور التسلُّلَ ليلاً إلى ساحة كلية الحقوق عبر قنوات تصريف مياه الأمطار المثبتة تحت الجسر، وتعليقَ المنشورات لتحريض الطلبة على مواصلة الإضراب والتظاهر. تمزّقتْ أزرارُ قميصه وهو يزحف داخل القنوات، ونبحتْ كلابٌ فوق الهضبة، فصاح منصور في وجهه: «لقد أدركتنا فرقةُ الشرطة المختصة بكلابها المسعورة. اِدفنِ الأوراقَ في المستنقع.» وعندما تيقّنا أنّها كلابٌ سائبةٌ واصلا السير. وكانت ثيابهما متّسخةً بأوحال المستنقع في آخر نقطة من القناة

ها هو صديقه منصور أمامه الآن وقد أصبح قاضيًا. والرداءُ الأسودُ الموشّح بشريط أحمر أضفى عليه هيبةَ السلطة ووقارَها وناموسَ القضاء وحرمتَه.

رفعت المحكمةُ الجلسةَ للمفاوضة. لم يستطع نضال أن يقاوم إغفاءةً وسط القاعة وهو لم يغمض جفنيْه في السجن الليلة البارحة. ورأى، فيما يرى النائمُ، عملاقًا في شكل ديناصور محمرّ العينين طويلَ اللسان منتفخَ الأوداج يَطْحن بأرجله كلَّ شيء أخضر، والناسُ أقزامٌ يتصايحون ويهربون فارين إلى مخابئ ومغاور منحوتةٍ وسط الجبال، والجو مغبرّ والسماء غائمة، وأمطار تنزل بغزارة وتَجْرف معها الحجارةَ والرمالَ والأشجار.

استفاق لاهثًا على صوت حاجب المحكمة وهو يصيح: «محكمة! استؤنفت الجلسة.. » أنصت إلى القاضي منصور وهو يتلو نصَّ الحكم بالسجن. وانطلقتْ صرخةٌ حادةٌ من حلق امرأة متلفّعة بملاءة سوداء: «آآه.. يا ولدي..» وأرسلتْ نحيبًا متقطِّعًا ثم سقطتْ مغشيًا عليها. عندئذ تذكَّر نضال والدتَه. وتذكّر سائقَ السيارة الفظّ وهو يَشْتمه ويشير عليه بالتزام اليمين. وتذكّر ما قاله الشيخ عبد الرحمن: «إنّ خير الأمور أوسطها.» نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الحادية عشرة وخمسين دقيقة. فأسرع خارجًا من قصر العدالة في اتجاه محطة الحافلات وفي نفسه رغبةٌ واحدةٌ أن يزور قبر أمّه فيرسلَ دموعًا غزيرةً تغسله... رغم أنّ عينيه عصيّتان على الدمع.

جَرْبة